قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، ثنا غندر ، ثنا شعبة عن أبي اسحاق سمعت عبد الرحمن بن زيد عن عبد الله قال ، بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول وهن من تلادي .

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها ، وان الناس في غفلة عنها ، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها . وقال النسائي : حدثنا أحمد بن نصر ، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال « في الدنيا » . وقال تعالى : ﴿ اتى امر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ﴾ الآية ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نواس الشاعر انه قال : اشعر الناس الشيخ الطاهر ابو العتاهية حيث يقول :

الناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

فقيل له : من أين اخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وروي في ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الآمدي عن عبد الرحمن بن زيد بن اسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة انه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : اني استقطعت من رسول الله ﷺ واديا في العرب ، وقد أردت ان أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك ؛ فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ .

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرءونه محضاً لم يشب ، رواه البخاري بنحوه .

وقوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ، ولهذا قال ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ؛ فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض . وقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد . وقوله ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم

فيه وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحراً ، وتارة يجعلونه شعراً ، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام ، وتارة يجعلونه مفترى ، كما قال ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾

وقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كناقة صالح وآيات موسى وعيسىٰ وقد قال الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ أي ما آتينا قرية من القرى الذي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا ، فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا ، بل ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبي حاتم رحمه الله : ذكر عن زيد بن الحباب ، حدثنا ابن لهيعة : حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي ، حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول : كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقرأ بعض القرآن ، فجاء عبد الله بن أبي بن سلول ومعه غرقة وزريبة ، فوضع واتكأ ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلا ، فقال : يا أبا بكر ، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون ، جاء موسى بالألواح ، وجاء داود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة ؛ فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إنه لا يقام لي إنما يقام لله عز وجل » فقلنا : يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق ، فقال « إن جبريل قال لي اخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك ، وفضيلته التي فضلت بها ، فبشرني أني بعثت إلى الأحمر والأسود ، وأمرني أن أنذر الجن ، وآتاني كتابه وأنا أمي ، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمي في الأذان ، وأمدني بالملائكة ، وآتاني النصر ، وجعل الرعب أمامي ، وآتاني الكوثر ، وجعل حوضي من أكثر الحياض يوم القيامة وروداً ، ووعدني المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رؤوسهم ، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب ، وآتاني السلطان والملك ، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم ، فليس فوقي أحد إلا الملائكة الذي يحملون العرش ، وأحل لي ولأمتي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا » وهذا الحديث غريب جداً .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليه ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل ﴾ وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم ، لأنهم أنكروا ذلك فقالوا ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ وإنما كانوا بشراً ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم .

وقوله ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي قد كانوا بشراً ، من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً ، كما توهمه المشركون في قولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وخاصتهم أنهم يوحي اليهم من الله عز وجل ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ، ولهذا قال ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس : شرفكم . وقال مجاهد : حديثكم . وقال الحسن : دينكم ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة ، وتتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾ . وقوله ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ هذه صيغة تكثير ، كما قال ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ﴾ الآية .

وقوله ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أخرى بعدهم ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ اي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرون هاربين ﴿ لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم نزراً ، أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة . قال قتادة استهزاء بهم ، ﴿ لعلكم تسألون ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم ، ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ، ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيرا هم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذي أحسنوا بالحسنى ، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا ﴾ يعني من عندنا ، يقول : وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً . وقال الحسن وقتادة وغيرهما ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً ﴾ اللهو المرأة بلسان أهل اليمن . وقال إبراهيم النخعي ﴿ لا تخذناه ﴾ من الحور العين . وقال عكرمة والسدي : والمراد باللهو ههنا الولد ، وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الافك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿ سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ .

وقوله ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم : أي ما كنا فاعلين . وقال مجاهد كل شيء في القرآن إن فهو إنكار . وقوله ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً ، فقال ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستنكفون عنها ، كما قال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون * ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل

ليلا ونهارا ، مطيعون قصداً وعملا ، قادرون عليه ، كما قال تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي ؛ أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء ؛ فقال رسول الله ﷺ « اني لأسمع أطيط السماء ، وما تلام ان تئط وما فيها موضع شبر الا وعليه ملك ساجد أو قائم » غريب ، ولم يخرجوه ؛ ثم رواه ـ أعني ابن ابي حاتم ـ من طريق يزيد بن ابي زريع عن سعيد عن قتادة مرسلا . وقال محمد بن اسحاق عن حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : جلست الى كعب الأحبار وأنا غلام ، فقلت له : أرأيت قول الله تعالى للملائكة ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل . فقال : من هذا الغلام ؟ فقالوا من بني عبد المطلب ، قال : فقبل رأسي ثم قال : يا بني انه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ، أليس تتكلم وأنت تتنفس ، وتمشي وأنت تتنفس ؟ .

أَمِ اتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿ ام اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، اي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض ، فقال ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وقال ههنا ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً .

وقوله ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه ، ﴿ وهم يسئلون ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله ﴿ فوربك لنسألنهم اجمعين عما كانوا يعملون ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ .

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون ، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ، ولكن انتم ايها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ، ولهذا قال ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ كما قال ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ وقال ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة ، كمن قال ذلك من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده في منازل عالية ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ اي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ . وقوله ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿ مشفقون * ومن يقل منهم اني اله من دونه ﴾ اي من ادعى منهم انه اله من دون الله اي مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ اي كل من قال ذلك ، وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله ﴿ قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ ، وقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات ، فقال ﴿ أو لم ير الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره ، ألم يعلموا ان الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره ، او يشرك به ما سواه ، الم يروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً اي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ؛ فجعل السموات سبعاً ، والأرض سبعاً ، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال : سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وقال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة ، حدثنا حاتم عن حمزة بن ابي محمد ، عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . قال : اذهب الى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك ، قال : فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لاتنبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ؛ فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتي في القرآن علماً ، صدق هكذا كانت ، قال ابن عمر : قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً . وقال عطية العوفي ، كانت هذه رتقاً لاتمطر فامطرت ، وكانت هذه رتقاً لاتنبت فأنبتت .

وقال إسماعيل ابن ابي خالد : سألت أبا صالح الحنفي عن قوله ﴿أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ قال : كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات ،وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين ؛ وهكذا قال مجاهد ، وزاد : ولم تكن السماء والأرض ستماستين . وقال سعيد بن جبير : بل كانت السماء والأرض ملتزقتين ، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض ، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه . وقال الحسن وقتادة : كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء .

وقوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ اي أصل كل الأحياء . قال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا ابو الجماهر ، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن ابي ميمونة عن ابي هريرة أنه قال : يا نبي الله إذا رأيتك قرت عيني وطابت نفسي ،

فأخبرنا عن كل شيء قال «كل شيء خلق من ماء» . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا ، همام عن قتادة عن ابي ميمونة عن ابي هريرة قال : قلت يا رسول الله أني إذ رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأنبئني عن كل شيء ، قال «كل شيء خلق من ماء» قال : قلت انبئني عن امر إذا عملت به دخلت الجنة قال «أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والنامس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام» ورواه ايضاً عبد الصمد وعفان وبهز عن همام ، تفرد به أحمد ، وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم ، والترمذي يصحح له ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً ، والله أعلم .

وقوله ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ اي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس ، اي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع ، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات ، ولهذا قال ﴿أن تميد بهم﴾ اي لئلا تميد بهم . وقوله ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ اي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر الى قطر وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا الى ههنا ، ولهذا قال ﴿لعلهم يهتدون﴾ .

وقوله ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ اي على الأرض وهي كالقبة عليها ، كما قال ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وقال ﴿والسماء وما بناها﴾ ﴿أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج﴾ والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ «بني الإسلام على خمس» اي خمسة دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب ﴿محفوظاً﴾ اي عالياً محروساً أن ينال . وقال مجاهد : مرفوعاً . وقال ابن ابي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا احمد بن عبد الرحمن الدشتكي ، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث يعني ابن إسحاق القمي عن جعفر ابن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل : يا رسول الله ما هذه السماء ؟ قال «موج مكفوف عنكم» إسناده غريب .

وقوله ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ كقوله ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ أي لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر ،وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة ، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها . وقد ذكر ابن أبي الدنيارحمه الله في كتابه التفكر والاعتبار : أن بعض عباد بني إسرائيل تعبد ثلاثين سنة ، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة ، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يحصل لغيره ، فشكى ذلك إلى أمه فقالت له : يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه ؟ فقال : لا والله ما أعلمه ، قالت : فلعلك هممت ؟ قال : لا ولا هممت ، قالت : فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر ؟ فقال : نعم كثيراً ، قال : فمن ههنا أتيت ، ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر ﴿والشمس والقمر﴾ هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أي يدورون . قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى : ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا بل ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن ، لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً . وقد قال تعالى : ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ . وقوله ﴿أفائن مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ، ولهذا قال تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقد روي عن الشافعي رحمه الله أن أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى ، فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ونبلوكم يقول نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال . وقوله ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إن يتخذونك إلا هزواً﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك ، يقولون ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ، قال تعالى : ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله ، كما قال في الآية الأخرى ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ .

وقوله ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿وكان الإنسان عجولا﴾ أي في الأمور . قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق ، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ، ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس . وقال ابن ابي حاتم ؛ حدثنا احمد بن سنان . حدثنا يزيد بن هارون ، انبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي ـ وقبض أصابعه يقللها ـ فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه» قال أبو سلمة : فقال عبد الله بن سلام : قد عرفت تلك الساعة ، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة ، وهي التي خلق الله فيها آدم ، قال الله تعالى : ﴿خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ والحكمة في ذكر عجلة الانسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك ، فقال الله تعالى : ﴿خلق الانسان من عجل﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال ﴿سأوريكم آياتي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فلا تستعجلون﴾ .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً ، فقال ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى : ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا به . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ وقال في هذه الآية ﴿حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ وقال ﴿سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ولاهم ينصرون﴾ أي لاناصر لهم ، كما قال ﴿ومالهم من الله من واق﴾ . وقوله ﴿بل تأتيهم بغتة﴾ أي ﴿تأتيهم النار بغتة﴾ أي فجأة ، ﴿فتبهتهم﴾ اي تذعرهم ، فيستسلمون لها حائرين ولا يدرون ما يصنعون ، ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لاتنام ، فقال ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره ، كما قال الشاعر :

جارية لم تلبس المرقبا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق . وقوله تعالى : ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي لايعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه ، ثم قال ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي أهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ، ولا كما زعموا ، ولهذا قال ﴿لايستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله ﴿ولاهم منا يصحبون﴾ قال العوفي عن ابن عباس : ولا هم منا يصحبون أي يجارون . وقال قتادة : لا يصحبون من الله بخير . وقال غيره : ولاهم منا يصحبون يمنعون .

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ماهم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء ، ثم قال واعظاً لهم ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ اختلف المفسرون في معناه ، وقد اسلفنا في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى : ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ وقال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على اعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال ﴿أفهم الغالبون﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون والأرذلون .

وقوله ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ، ولهذا قال : ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾ وقوله ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا . وقوله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد لأعمال الموزونة فيه .

وقوله ﴿فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ كما قال تعالى : ﴿ولا يظلم

ربك أحداً﴾ وقال ﴿إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً﴾ وقال لقمان ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني ، حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فبهت الرجل فيقول : لا يارب ؛ فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لاظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول أحضروه ، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : إنك لاتظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، قال : ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم» ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث الليث بن سعد ، وقال الترمذي : حسن غريب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ «توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه فيمايل به الميزان ، قال : فيبعث به الى النار ، قال : فإذا أدبر به إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لا تعجلوا . فانه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان» وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو نوح مراراً ، انبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال ، يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فان كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك ، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ «ما له لايقرأ كتاب الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد شيئاً خير من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾ قال مجاهد : يعني الكتاب . وقال أبو صالح : التوراة . وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل . وقال ابن زيد يعني النصر : وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ، ولهذا قال ﴿الفرقان وضياء وذكراً للمتقين﴾ أي تذكيراً لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال ﴿الذي يخشون ربهم بالغيب﴾ كقوله ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ . وقوله ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي خائفون وجلون ، ثم قال تعالى : ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ يعني القرآن العظيم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴿أفأنتم له منكرون﴾ أي افتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا

عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل ، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى : ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع ، وأنه خرج بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بني إسرائيل ، فما وافق منها الحق ، مما بأيدينا عن المعصوم ، قبلناه لموافقته الصحيح ، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لانصدقه ولانكذبه بل نجعله وقفاً ، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته ، وكثير من ذلك مما لافائدة فيه ولاحاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذي نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الاسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم ، فانهم لاتفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة . والمقصود ههنا ان الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل ، أي من قبل ذلك .

وقوله ﴿وكنا به عالمين﴾ أي وكان أهلاً لذلك ؛ ثم قال ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الانكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل ، فقال ﴿ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ أي معتكفون على عبادتها . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد الصباح ، حدثنا أبو معاوية الضرير ، حدثنا سعيد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة قال : مر علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها ﴿قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ، ولهذا قال ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي الكلام مع آبائكم الذي احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أم محقاً فيه ، فإنا لم نسمع به قبلك ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره ، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي وأنا أشهد أنه لاإله غيره ولا رب سواه .

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثم اقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أي ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين ، أي إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض ، وقال : إني سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون : مه ، فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾ فسمعه أولئك . وقال ابن إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا

عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه ناس منهم .

وقوله ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي حطاماً كسرها كلها ، إلا كبيراً لهم يعني إلا الصنم الكبير عندهم ، كنا قال ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ . وقوله ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والاذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي في صنيعه هذا ، ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم : سمعنا فتىً أي شاباً ، يذكرهم يقال له إبراهيم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب ، وتلا هذه الآية ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ .

وقوله ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الاكبر لإبراهيم عليه السلام ان يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام . التي لاتدفع عن نفسها ضراً ، ولا تملك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟ ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد .

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله قال «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : اثنتين في ذات الله قوله ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ، وقوله ﴿إني سقيم﴾ ـ قال ـ وبينا وهو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني عنده ، فانك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الارض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى اليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له ، فأرسل فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك ، فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها ، انفتل من صلاته ، وقال : مهيم . قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمني هاجر» . قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بني ماء السماء .

فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم ، فقالوا ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾ أي في تركككم لها مهملة لا حافظ عندها ، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي ثم اطرقوا في الأرض فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ . قال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ . وقال السدي ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي في الفتنة . وقال ابن زيد : أي في الرأي ، وقول قتادة أظهر في المعنى ، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا ، ولهذا قالوا له ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لاتنطق ، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي إذا كانت لا تنطق وهي لاتنفع ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الآية .

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ ، فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، قال السدي : حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه في جورة من الأرض وأضرموها ناراً ، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد ناراً قط مثلها ، وجعلوا ابراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد . قال شعيب الجبائي ، اسمه هيزن : فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالها ابراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وروى الحافظ أبو يعلى : حدثنا ابن هشام ، حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار ، قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك» ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : لا إله إلا أنت ، سبحانك لك الحمد ، ولك الملك لا شريك لك ، وقال شعيب الجبائي : كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة ، فالله أعلم ؛ وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى . وقال سعيد بن جبير ـ ويروى عن بن عباس ايضاً ـ قال : لما ألقي إبراهيم ، جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ قال : لم يبق نار في الأرض إلا طفئت . وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من ابراهيم سوى وثاقه .

وقال الثوري عن الأعمش ، عن شيخ ، عن علي بن ابي طالب ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ قال : لا تضريه . وقال ابن عباس وابو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : وسلاماً لآذى إبراهيم بردها ، وقال جويبر عن الضحاك : كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ، قالوا : صنعوا له حظيرة من حطب جزل ، وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى اخمدها الله ، قال : ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق ، فلم يصبه منها شيء غير ذلك . وقال السدي : كان معه فيها ملك الظل .

وقال علي بن ابي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا مهران ، حدثنا إسماعيل بن ابي خالد عن المنهال بن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار ، قال : فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أياماً ولياليَ قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي اذ كنت فيها . وقال ابو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال : إن أحسن شيء ، قال ابو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار : وجده يرشح جبينه ، قال عند ذلك : نعم الرب ربك يا إبراهيم . وقال قتادة : لم يأت يومئذ دابة إلا اطفأت عنه النار ، لا الوزغ ؛ وقال الزهري : أمر النبي ﷺ بقتله ، وسماه فويسقا . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبيد الله بن أخي بن وهب ، حدثني عمي ، حدثنا جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال : حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت : دخلت على عائشة ، فرأيت في بيتها رمحاً ، فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به هذه الأوزاغ ، إن رسول الله ﷺ قال «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة الا تطفيء النار غير الوزغ ، فانه كان ينفخ على ابراهيم» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله . وقوله ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ أي المغلوبين الأسفلين ، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي : لما ألقي ابراهيم في النار ، جاء ملكهم لينظر إليه ، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ، فأحرقته مثل الصوفة .

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا

صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرا الى بلاد الشام ، الى الارض المقدسة منها . كما قال الربيع بن انس عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب في قوله ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ قال : الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة ، وكذا قال ابو العالية ايضاً وقال قتادة : كان بأرض العراق ، فأنجاه الله إلى الشام ، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة ، وما نقص من الأرض زيد في الشام ، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيح الدجال .

وقال كعب الأحبار في قوله ﴿إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ الى حران . وقال السدي : انطلق ابراهيم ولوط قبل الشام ، فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم ، فتزوجها على ان يفرّ بها ، رواه ابن جرير ، وهو غريب ، والمشهور أنها ابنة عمه ، وانه خرج بها مهاجراً من بلاده . وقال العوفي عن ابن عباس : إلى مكة ، ألا تسمع الى قوله ﴿ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾ .

وقوله ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ قال عطاء ومجاهد وعطية وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينه : النافلة ولد الولد ، يعني ان يعقوب ولد إسحاق ، كما قال ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : سأل واحداً ، فقال ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة ، ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ اي الجميع اهل خير وصلاح ، ●﴿وجعلناهم أئمة﴾ اي يقتدى بهم ، ﴿يهدون بأمرنا﴾ اي يدعون الى الله بإذنه ، ولهذا قال ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة﴾ من باب عطف الخاص على العام ، ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ اي فاعلين لما يأمرون الناس به ، ثم عطف بذكر لوط ، وهو لوط بن هاران بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه الى سدوم واعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾ .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ وقال نوح ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً﴾ ولهذا قال ههنا ﴿إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله﴾ أي الذين آمنوا به ، كما قال ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل﴾ . وقوله ﴿من الكرب العظيم﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم الا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه . وقوله ﴿ونصرناه من القوم﴾ اي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ أي أهلكهم الله بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، كما دعا عليهم نبيهم .

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا
دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود : كان ذلك الحرث كرماً قد تدلت عناقيده ؛ وكذا قال شريح . وقال ابن عباس : النفش الرعي . وقال شريح والزهري وقتادة : النفش لا يكون إلا بالليل ، زاد قتادة : والهمل بالنهار . وقال ابن جرير : حدثنا ابو كريب وهارون بن إدريس الأصم ، قالا حدثنا المحاربي عن أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود في قوله ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته ، قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله : قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم الى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ؛ فذلك قوله ﴿ففهمناها سليمان﴾ وكذا روى العوفي عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد : حدثني خليفة عن ابن عباس قال : قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاة معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ؛ فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا ، فأخبر بذلك داود ، فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فاذا بلغ الحرث الذي كان عليه ، أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها . وقال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا خديج عن ابي إسحاق عن مرة عن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم ، إنما كان كرماً فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال : سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم ، وأهل الكرم كرمهم ، وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن ابي زياد ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا إسماعيل عن عامر قال : جاء رجلان الى شريح ، فقال أحدهما : إن شياه هذا قطعت غزلاً لي ، فقال شريح : نهاراً أم ليلاً ؟ فان كان نهاراً فقد برىء صاحب الشياه ، وإن كان ليلاً فقد ضمن ؛ ثم قرأ ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث﴾الآية ؛ وهذا الذي قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة من حديث الليث بن سعد عن الزهري ، عن حرام بن سعد بن محيصة ، أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها ؛ وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام ، وبالله التوفيق .

وقوله ﴿ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ قال ابن ابي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ دواد وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال : ـ يعني الحسن ـ : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلا ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ وقال ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ وقال ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ قلت : أما الأنبياء عليهم السلام ، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ،

وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ ، فله أجر » فهذا الحديث يردد نصاً ما توهمه إياس من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار ، والله أعلم .

وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار ، وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا علي بن حفص ، أخبرنا ورقاء عن ابي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحا كمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما : فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى » وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وبوب عليه النسائي في كتاب القضاء .

[باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق]

وهكذا القصة التي أوردها الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد ، عن ابن عباس ، فذكر قصة مطولة ، ملخصها : أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيل ، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم ، فامتنعت على كل منهم ، فاتفقوا فيما بينهم عليها ؛ فشهدوا عليها عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها ، فأمر برجمها ، فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله ، فانتصب حاكما وتزيا أربعة منهم بزي أولئك ، وآخر بزي المرأة ، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً ، فقال سليمان فرقوا بينهم ، فسأل أولهم ما كان لون الكلب ؟ فقال أسود ، فعزله واستدعى الآخر فسأله عن لونه ، فقال : أحمر ؛ وقال الآخر : أغبش ، وقال الآخر : أبيض ؛ فأمر عند ذلك بقتلهم ؛ فحكي ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب ، فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم .

وقوله ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ الآية ؛ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال ﴿ لقد اوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود ﴾ قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً . وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ؛ ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود » .

وقوله ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح : وهو أول من سردها حلقا ، كما قال تعالى ﴿ وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد ﴾ أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني في القتال ﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم . وقوله ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ يعني أرض الشام ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله ؛ فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر الى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبي سنان عن سعيد بن جبير قال : كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ، ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه ، ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء ، وهو مطلطى رأسه ما يلتفت يميناً ولا شمالاً ، تعظيماً لله عز وجل ، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه في ملك الله عز وجل ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه .

وقوله ﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر وغير ذلك ، ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ . وقوله ﴿ وكنا

لهم حافظين ﴾ أي يحرسه الله ان يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل في قبضته وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو اليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال ﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك انه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثير ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره ، ثم ابتلي في جسده ، يقال : بالجذام في سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وافرد في ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت ، فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبي ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وفي الحديث الآخر « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فان كان في دينه صلابة زيد في بلائه » وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك . وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شيء له أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب ، الذي أحسنت إليّ ، أعطيتني المال والولد فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله مني ، وفرغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوي إبليس بالذي صنعت حسدني . قال : فلقي ابليس من ذلك منكراً . قال : وقال أيوب عليه السلام : يارب انك أعطيتني المال والولد ، فلم يقم على بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته ، وأنت تعلم ذلك ، وأنه كان يوطأ لي الفراش فاتركها ، واقول لنفسي يا نفس إنك لم تخلفي لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك . رواه ابن أبي حاتم .

وقد روي عن وهب بن منبه في خبره قصة طويلة ، ساقها ابن جرير وابن أبي حاتم بالسند عنه ، وذكرها غير واحد من متأخري المفسرين ، وفيها غرابة تركناها لحال الطول ، وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا في السبب المهيج له على هذا الدعاء ؛ فقال الحسن وقتادة : ابتلي أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهراً ، ملقى على كناسة بني إسرائيل ، تختلف الدواب في جسده ، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء . وقال وهب بن منبه : مكث في البلاء ثلاث سنين ، لا يزيد ولا ينقص وقال السدي : تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام ، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه ، فقالت له امرأته لما طال وجعه : يا أيوب لو دعوت ربك يفرج عنك ؛ فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهو قليل لله أن اصبر له سبعين سنة ، فجزعت من ذلك ، فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه ، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين ، فأتاهما فقال : أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا ، فأتياه وزوراه ، واحملا معكما من خمر أرضكما ، فانه إن شرب منه برىء ، فاتياه فلما نظرا اليه بكيا ، فقال : من أنتما ؟ فقالا : نحن فلان وفلان ، فرحب بهما وقال : مرحباً بمن لا يجفوني عند البلاء ، فقالا : يا أيوب لعلك كنت تسر شيئاً وتظهر غيره ، فلذلك ابتلاك الله ؟ فرفع رأسه الى السماء فقال : هو يعلم ، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره ، ولكن ربي ابتلاني لينظر أأصبر أم أجزع . فقالا له : يا أيوب اشرب من خمرنا ، فانك إن شربت منه برأت . قال : فغضب ، وقال : جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علي حرام ، فقاما من عنده ، وخرجت امرأته تعمل للناس ، فخبزت لأهل بيت لهم صبي ، فجعلت لهم قرصاً ، وكان ابنهم نائماً ، فكرهوا أن يوقظوه فوهبوه لها ، فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال : ما كنت تأتيني بهذا ، فما بالك اليوم ؟ فأخبرته الخبر ، قال : فلعل الصبي قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكي على أهله ، فانطلقي به إليه ، فأقبلت حتى بلغت درجة القوم ، فنطحتها شاة لهم ، فقالت : تعس أيوب الخطاء ، فلما صعدت وجدت الصبي قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكي على أهله لا يقبل منهم شيئاً غيره ، فقالت : رحمه الله ، يعني أيوب ، فدفعت اليه القرص ورجعت ، ثم ان إبليس أتاها في صورة طبيب ، فقال لها : إن زوجك قد طال سقمه ، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان ، فانه يبرأ ويتوب بعد ذلك ؛ فقالت ذلك لأيوب ، فقال : قد أتاك الخبيث ، لله عليّ ان برأت أن أجلدك مائة جلده ، فخرجت تسعى عليه ، فحظر عنها الرزق ، فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها ، فلما اشتد عليها ذلك وخافت على ايوب الجوع حلقت من شعرها

قرنا فباعته من صبية من بنات الأشراف ، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً ، فأتت به أيوب ، فلما رآه أنكره وقال : من أين لك هذا ؟ قالت : عملت لأناس فأطعموني ، فأكل منه ، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد ، فحلقت أيضاً قرنا فباعته من تلك الجارية ، فأعطوها ايضاً من ذلك الطعام ، فأتت به أيوب فقال : والله لا أطعمه حتى أعلم من اين هو ، فوضعت خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً ، فعند ذلك دعا الله عز وجل ، فقال ﴿ رب اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له مبسوط ، قال : وكانت امرأة أيوب تقول : ادع الله فيشفيك ، فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل ، فقال بعضهم لبعض : ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه ، فعند ذلك قال ﴿ رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ . وحدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب عليه السلام اخوان ، فجاءا يوماً فلم يستطيعا ان يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال احدهما للآخر . لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط ؛ فقال : اللهم ان كنت تعلم اني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا اعلم مكان جائع ، فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط ، وأنا أعلم مكان عار ، فصدقني ، فصدق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهم بعزتك ، ثم خر ساجداً ، فقال : اللهم بعزتك لا ارفع رأسي ابداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقد رواه ابن ابي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا ، فقال : اخبرنا يونس بن عبد الأعلى ، اخبرنا ابن وهب ، اخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن انس بن مالك ان رسول الله ﷺ قال « ان نبي الله ايوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من اخوانه كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال احدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ؛ فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا اليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه السلام : ما أدري ما تقول ، غير ان الله عز وجل يعلم اني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكرا الله ، فأرجع الى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق ، قال : وكان يخرج في حاجته فاذا قضاها أمسكن امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم ابطأت عليه ، فأوحى الله الى ايوب في مكانه ان «اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » رفع هذا الحديث غريب جدا .

وروى ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا حماد ، اخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة ، فتنحى ايوب فجلس في ناحية ، وجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله اين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به او الذئاب ، فجعلت تكلمه ساعة . فقال : ويحك أنا أيوب . قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك انا ايوب قد رد الله علي جسدي ، وبه قال ابن عباس ، ورد عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه : أوحى الله الى أيوب قد رددت عليك اهلك ومالك ، ومثلهم معهم . فاغتسل بهذا الماء فان فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك . رواه ابن ابي حاتم .

وقال أيضاً : حدثنا ابو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن انس عن بشير بن نهيك عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يارب ومن يشبع من رحمتك » أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر .

وقوله ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ قد تقدم عن ابن عباس انه قال : ردوا عليه بأعيانهم ، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس ايضاً ، وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة ، وقد زعم بعضهم ان اسم زوجته رحمة ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد ابعد النجعة ، وإن كان أخذه من نقل اهل الكتاب وصح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب ، وقد سماها ابن عساكر في تاريخه : رحمه الله تعالى : قال : ويقال اسمها ليا بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم ، قال : ويقال ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض الثنية ، وقال مجاهد : قيل له : يا أيوب ان أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم ؟ قال : لا بل اتركهم في الجنة ، فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا . وقال حماد بن زيد عن ابي عمران

الجوني عن نوف البكالي قال : اوتي أجرهم في الأخرة وأعطي مثلهم في الدنيا . قال : فحدثت به مطرفاً ، فقال : ما عرفت وجهها قبل اليوم ، وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف ، والله أعلم . وقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ اي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن اهل البلاء انما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

وأما اسماعيل فالمراد به ابن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا إدريس عليه السلام ، وأما ذو الكفل ، فالظاهر من السياق انه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلاً صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مقسطاً ، وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله اعلم . قال ابن جريج عن مجاهد في قوله ﴿ وذا الكفل ﴾ قال : رجل صالح غير نبي ، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمي ذا الكفل ، وكذا روى ابن ابي نجيح عن مجاهد أيضاً .

وروى ابن جرير : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود عن مجاهد قال : لما كبر اليسع قال : لو اني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى انظر كيف يفعل ، فجمع الناس فقال : من يتقبل مني بثلاث استخلفه : فيصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب ؟ قال : فقام رجل تزدريه الأعين فقال : انا ، فقال : أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب ؟ قال : نعم ، قال : فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر ، فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : انا ، فاستخلفه . قال : فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم ذلك ، فقال : دعوني وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب ، فقال : من هذا ؟ قال : شيخ كبير مظلوم ، قال : فقام ففتح الباب ، فجعل يقص عليه ، فقال : ان بيني وبين قومي خصومة ، وانهم ظلموني ، وفعلوا بي وفعلوا بي ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة ، فقال : إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك ، فانطلق وراح ، فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره ، فقام يتبعه ، فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع الى القائلة فأخذ مضجعه ، اتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ قال : الشيخ الكبير المظلوم ، ففتح له فقال : ألم اقل لك إذا قعدت فأتني ، قال : انهم اخبث قوم اذا عرفوا انك قاعد قالوا : نحن نعطيك حقك ، واذا قمت جحدوني ، قال : فانطلق ، فاذا رحت فأتني ، قال : ففاتته القائلة ، فراح فجعل ينتظره ولا يراه ، وشق عليه النعاس ، فقال لبعض اهله : لا تدع احداً يقرب هذا الباب حتى انام ، فإني قد شق عليَّ النوم ، فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل : وراءك ، وراءك ، قال : اني قد اتيته امس وذكرت له امري ، فقال : لا والله لقد امرنا ان لا ندع احداً يقربه ، فلما اعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها ، فإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل ، قال : واستيقظ الرجل ، فقال : يا فلان ألم آمرك ؟ قال : اما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من اين اتيت ، قال ، فقام الى الباب فاذا هو مغلق كما اغلقه ، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه ، فقال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، اعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك ، فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به . وهكذا رواه ابن ابي حاتم من حديث زهير بن اسحاق عن داود عن مجاهد بمثله .

وقال ابن ابي حاتم : حدثنا ابي ، حدثنا احمد بن يونس ، حدثنا ابو بكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال : قال ابن عباس : كان قاض في بني اسرائيل فحضره الموت فقال : من يقوم مقامي على ان لا يغضب ؟ قال : فقال رجل : انا ، فسمي ذا الكفل ، قال : فكان ليله جميعاً يصلي ، ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس ، قال : وله ساعة يقيلها قال : فكان كذلك ، فأتاه الشيطان عند نومته ، فقال له أصحابه : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين له على رجل حق ، وقد غلبني عليه ، قالوا : كما أنت حتى يستيقظ ، قال : وهو فوق نائم ، قال : فجعل يصيح عمداً حتى يوقظه ، قال : فسمع ، فقال : ما لك ؟ قال : إنسان مسكين له على رجل حق ، قال : فاذهب فقل له يعطيك ، قال : قد أبى ، قال : اذهب أنت اليه ، قال : فذهب ثم جاء من الغد فقال : ما لك ؟ قال : ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً . قال : اذهب إليه فقل له يعطيك حقك ، فذهب ثم جاء من الغد حين قال ، قال : فقال له أصحابه اخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام ، قال : فجعل يصيح من أجل أني إنسان مسكين لو كنت غنياً ، قال : فسمع أيضاً فقال : ما لك ؟

قال : ذهبت إليه فضربني ، قال : امش حتى يجيء معك ، قال : فهو يمسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففر . وهكذا روي عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وأبي حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذه القصة ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، أخبرنا سعيد بن بشير ، حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال : سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل ، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً ، والله أعلم .

وقد روى الامام احمد حديثاً غريباً فقال : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملني عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ؟ ثم نزل فقال : اذهبي بالدنانير لك ، ثم قال : والله لا يعصي الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه : غفر الله للكفل » هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، والله أعلم ؛ وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان الكفل ، ولم يقل ذو الكفل فلعله رجل آخر ، والله أعلم .

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة ﴿ ن ﴾ ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ، ورغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ . .

وأما يونس عليه السلام فانه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ **فساهم فكان من المدحضين** ﴾ أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله الى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً .

وقوله ﴿ **وذا النون** ﴾ يعني الحوت صحت الاضافة اليه بهذه النسبة . وقوله ﴿ **إذ ذهب مغاضباً** ﴾ قال الضحاك لقومه ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى : ﴿ **ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسر يسرا** ﴾ وقال عطية العوفي : اي فظن أن لن نقدر عليه ، اي نقضي عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ، فان العرب تقول : قدر وقدّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى : ﴿ **فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ أي قدر . وقوله ﴿ **فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ، وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة . وقال سالم بن أبي الجعد : ظلمة حوت في

بطن حوت آخر في ظلمة البحر ؛ قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر ، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره ، فعند ذلك وهنالك قال ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ وقال عوف الأعرابي : لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات ، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه ، ثم نادى يارب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس . وقال سعيد بن أبي الحسن البصري : مكث في بطن الحوت أربعين يوماً . رواهما ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت ، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر ، قال : وسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ، قال : ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر ، قالوا : العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم ، قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل ، كما قال الله تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ رواه ابن جرير ، ورواه البزار في مسنده من طريق محمد بن إسحاق عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة فذكر بنحوه ، ثم قال : لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب ، ثنا عمي ، حدثني أبو صخرة أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنس بن مالك ، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت ، سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ، قالوا : يارب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه في العراء .

وقوله ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين الينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء . قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد ، فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الاسلام شيء ، مرتين قال : لا وما ذاك ؟ قلت لا ، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد علي السلام ، قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت ، قال سعد : قلت بلى حتى حلف وحلفت ، قال : ثم ان عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة ، قال سعد : فأنا أنبئك بها ، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما اشفقت ان يسبقني الى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال « من هذا ، أبو إسحاق ؟ » قال : قلت نعم يا رسول الله ، قال « فمه » قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك ، قال « نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير بن زيد عن المطلب بن حنطب ، قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ . وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن ، حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اسم الله الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به اعطى دعوة يونس بن متى » قال قلت يا رسول الله . هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال « هي ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة

المؤمنين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن ابي شريح ، حدثنا داود بن المحبر بن محزم المقدسي عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن فقلت : يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ؟ قال : ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً ـ إلى قوله ـ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ابن أخي هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً ، وههنا أختصر منها ﴿ إذ نادى ربه ﴾ أي خفية عن قومه ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة ، قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته ، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت . وقال عبد الرحمن بن مهدي عن طلحة بن عمرو عن عطاء : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ؛ وهكذا قال محمد بن كعب والسدي ، والأظهر من السياق الأول .

وقوله ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ قال الثوري : رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي مصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : مؤمنين حقاً . وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً . وعن مجاهد أيضاً : خاشعين أي متواضعين . وقال الحسن وقتادة والضحاك : خاشعين أي متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة . وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه . ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الالحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها ايجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب فانها ايجاد ولد من انثى بلا ذكر ، هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم ، وههنا ذكر قصة زكريا ثم اتبعها بقصة مريم بقوله ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ يعني مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم ﴿ ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ .

وقوله ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وانه يخلق ما يشاء ، وإنما امره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمر بن علي ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعني ابن بشير ، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ للعالمين ﴾ قال : العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم في قوله ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ يقول : ﴿ دينكم دين واحد ﴾ وقال الحسن البصري في هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال ﴿ ان هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي سنتكم سنة واحدة ؛ فقوله إن هذه إن واسمها ، وامتكم خبر إن ، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم . وقوله امة واحدة نصب على الحال ، ولهذا قال ﴿ وانا ربكم فاعبدون ﴾ كما قال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ـ إلى قوله ـ وانا ربكم فاتقون ﴾ وقال رسول الله ﷺ « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » يعني ان المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

وقوله ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ، ولهذا قال ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازي كلاً بحسب عمله ، ان خيراً فخير وان شراً فشر ، ولهذا قال ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية اهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد . وفي رواية عن ابن عباس : انهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الاول اظهر ، والله اعلم .وقوله﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد قدمنا انهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث ، أي أبي الترك ، والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ، وقال ﴿ هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ﴾ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ الآية ؛ وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون ، الذي يعلم غيب السموات والأرض لاإله إلا هو .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن مثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الله بن يزيد قال : رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج ، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية .

[فالحديث الأول] قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن ابن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «تفتح يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، كما قال الله عز وجل ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ، ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يابساً ، حتى أن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس احد إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهزأ أحدهم حربته ، ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في اعناقه ، فيصبحون موتى لايسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر مافعل هذا العدو؟ قال : فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادي : يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ، ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم ، فتشكر عنهم كأحسن ماشكرت عن شيء من النبات أصابته قط» ؛ ورواه ابن ماجة من حديث يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق به .

[الحديث الثاني] قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حمص ، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه ، أنه سمع النواس بن سمعان الكلابي قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتى ظننناه في ناحية النخل ، فقال «غير الدجال أخوفني عليكم . فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم ، وإنه شاب جعد قطط عينه طافية ، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وشمالاً ياعباد الله اثبتوا ـ قلنا : يارسول الله مالبثه في الأرض ؟ ـ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا : يارسول الله فذاك اليوم الذي هو كسنة ، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة ؟ قال «لا اقدروا له قدره» قلنا : يارسول الله فما إسراعه في الأرض ؟ قال كالغيث اشتد به الريح ، قال : فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى ، أمده خواصر ، وأسبغه ضروعاً ، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، ويمر بالخربة فيقول لها : اخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ـ قال ـ ويأمر برجل فيقتل ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل إليه ، فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً يديه على أجنحة ملكين ، فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقي ـ قال ـ فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عباداً من عبادي لايدان لك بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج ، كما قال تعالى : ﴿وهم من كل حدب ينسلون﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ، فيهبط عيسى وأصحابه فلايجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» ؛ قال ابن جابر : فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال : فتطرحهم بالمهيل ؛ قال ابن جابر : فقلت ياأبا يزيد ، وأين المهيل ؟ قال : مطلع الشمس . قال «ويرسل الله مطراً لايكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة ، ويقال للأرض انبتي ثمرك وردي بركتك ، قال : فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ، ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر تكفي الفخذ ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت ؛ قال : فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة» ؛ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ، ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

[الحديث الثالث] قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة ، عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب ؛ فقال «إنكم تقولون لاعدو لكم ، وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج : عراض الوجوه ، صغار العيون ، صهب الشعاف ، من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة» ، وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي ، عن خالة له ، عن النبي ﷺ ، فذكره مثله سواء .

[الحديث الرابع] قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد عن هشيم ، عن العوام ، عن جبلة بن سحيم ، عن مرثد بن عمارة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «لقيت ليلة اسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ـ قال فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لاعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لاعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إلي ربي أن الدجال خارج ومعي قضيبان ؛ فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتي كافراً ؛ فتعال فاقتله ؛ قال : فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ـ قال ـ فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، ولايأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولايمرون على ماء إلا شربوه ـ قال ـ ثم يرجع الناس إلى أوطانهم يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لايدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً» .

ورواه ابن ماجة عن محمد بن بشار ، عن يزيد بن هارون ، عن العوام بن حوشب به نحوه ، وزاد : قال العوام :

ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به . والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك ، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد ، عن حميد بن هلال ، عن أبي الصيف قال : قال كعب إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غداً فنخرج فيعيده الله كما كان ، فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان ، فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم ، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غداً فنخرج ان شاء الله ، فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه ، فيحفرون حتى يخرجوا ، فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون : قد كان ههنا مرة ماء ، فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ، ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : غلبنا أهل الأرض وأهل السماء ، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقول : اللهم لاطاقة ولايد لنا بهم ، فاكفناهم بما شئت ، فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف ، فيفرس رقابهم ، ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر ، ويبعث الله عيناً يقال لها الحياة يطهر الله الأرض وينبتها ، حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن ، وقيل : وما السكن ياكعب ؟ قال : أهل البيت ، قال : فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده ، قال فيبعث عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة او بين السبعمائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله ريحاً يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ، ثم يبقى عجاج الناس ، فيتسافدون كما تتسافد البهائم ، فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع ، قال كعب : فمن قال بعد قولي هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المتكلف ، وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار .

وقد ثبت في الحديث أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق ، وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» انفرد بإخراجه البخاري وقوله ﴿واقترب وعد الحق﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل ، أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت ، قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى : ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يا ويلنا﴾ أي يقولون ياويلنا ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي في الدنيا ﴿بل كنا ظالمين﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لاينفعهم ذلك .

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال ابن عباس : أي وقودها يعني كقوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ وقال ابن عباس أيضاً : حصب جهنم يعني شجر جهنم ؛ وفي رواية قال ﴿حصب جهنم﴾ يعني حطب جهنم بالزنجية . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها ، وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما ، وقال الضحاك : حصب جهنم أي مايرمى به فيها ، وكذا قال غيره ، والجميع قريب . وقوله ﴿أنتم لها واردون﴾ أي داخلون ﴿لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وكل فيها خالدون﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون ﴿لهم فيها زفير﴾ كما قال تعالى : ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ والزفير خروج أنفاسهم ، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وهم فيها لايسمعون﴾ .

قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا ابن فضيل ، حدثنا عبد الرحمن يعني المسعودي عن أبيه قال : قال ابن مسعود : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار ، فلا يرى احد منهم أنه يعذب في النار غيره ، ثم تلا عبد الله ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون﴾ ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن المسعودي عن يونس بن حبان عن ابن مسعود ، فذكره .

وقوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال عكرمة : الرحمة . وقال غيره ، السعادة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله ، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ وقال ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ، ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب ، فقال ﴿أولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها﴾ أي حريقها في الأجساد .

وقال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن أبي عثمان الحريري عن أبي عثمان ﴿لايسمعون حسيسها﴾ قال : حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قال : حس حس . وقوله ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب . قال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي شريح ، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير قال : وسمر مع علي ذات ليلة ، فقرأ ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ قال : أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم ، أو قال : سعد منهم ، قال : أقيمت الصلاة ، فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول ﴿لايسمعون حسيسها﴾ .

وقال شعبة عن أبي بشر عن يوسف المكي عن محمد بن حاطب قال : سمعت علياً يقول في قوله ﴿إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال : عثمان وأصحابه ، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً ، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ، وليس بابن ماهك عن محمد بن حاطب عن علي فذكره ولفظه عثمان منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً ، فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزير والمسيح ، كما قال حجاج بن محمد بن الأعور عن ابن جريج وعثمان عن عطاء عن ابن عباس ﴿إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ثم استثنى فقال ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ فيقال : هم الملائكة وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل ، وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال : نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليهما السلام ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة ، حدثنا أبو زهير ، حدثنا سعد بن طريف عن الأصبغ عن علي في قوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال : كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم ، إسناده ضعيف . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ قال : عيسى وعزير والملائكة . وقال الضحاك : عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر ، وكذا رُوي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد ، وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جداً ، فقال : حدثنا الفضل بن يعقوب المرخاني ، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك ، حدثنا الليث ابن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ قال : عيسى وعزير والملائكة ، وذكر بعضهم قصة بن الزبعري ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن سهل ، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم ، حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال : تزعم ان الله أنزل عليك هذه الآيه ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ فقال ابن الزبعري : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون وقالو ءآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ ثم نزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان يعني الثوري عن الأعمش عن أصحابه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ قال المشركون : فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت ﴿لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها﴾ الآلهة التي يعبدون ﴿وكل فيها خالدون﴾ وروي عن أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل ذلك وقال : فنزلت ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة : وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المسجد غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، وتلا عليه وعليهم ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ـ الى قوله ـ هم فيها

لايسمعون﴾ ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس معهم ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعري : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفاً ولا قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ؛ فقال عبد الله بن الزبعري : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمداً كل مايعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» وأنزل الله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون - إلى قوله - ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا آلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تمترنّ بها﴾ أي ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلاً على علم الساعة ، يقول ﴿فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾ وهذا الذي قاله ابن الزبعري خطأ كبير ، لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لاتعقل ، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها ، ولهذا قال ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ فكيف يورد على هذا المسيح وعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده ، وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن ما لما لايعقل عند العرب ، وقد أسلم عبد الله بن الزبعري بعد ذلك ، وكان من الشعراء المشهورين ، وقد كان يهاجي المسلمين أولاً ثم قال معتذراً :

يارسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبور

وقوله ﴿لايحزنهم الفزع الأكبر﴾ قيل : المراد بذلك الموت ، رواه عبد الرازق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء ، وقيل : المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور ، قاله العوفي عن ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني ، واختاره ابن جرير في تفسيره ؛ وقيل : حين يؤمر بالعبد إلى النار ، قاله الحسن البصري ؛ وقيل : حين تطبق النار على أهلها ، قاله سعيد بن جبير وابن جريج ؛ وقيل : حين يذبح الموت بين الجنة والنار ، قاله أبو بكر الهذلي فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، وقوله ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي فأملوا مايسركم .

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ كما قال تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ وقد قال البخاري : حدثنا مقدم بن محمد ، حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه» انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبي واصل عن أبي المليح الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي عن ابن عباس قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله ﴿كطي السجل للكتب﴾ قيل : المراد بالسجل الكتاب ، وقيل : المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا يحيى بن يمان ، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله تعالى : ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ ، قال : السجل ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال أكتبها نوراً ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به ، قال ابن أبي حاتم : وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك ، وقال السدي في هذه الآية : السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل ، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد به اسم رجل

صحابي كان يكتب للنبي ﷺ الوحي ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا نصر بن علي الجهضمي ، حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ قال : السجل هو الرجل ، قال نوح : وأخبرني يزيد بن كعب هو العوذي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ، وهكذا رواه أبو داود والنسائي ، كلاهما عن قتيبة بن سعد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ؛ ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي ، كما تقدم ؛ ورواه ابن عدي من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النكري عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى السجل ، وهو قوله ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ قال : كما يطوي السجل الكتاب كذلك تطوى السماء ، ثم قال : وهو غير محفوظ . وقال الخطيب البغدادي في تاريخه : أنبأنا أبو بكر البرقاني ، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي ، أنبأنا أحمد بن الحسين الكرخي أن حمدان بن سعيد ، حدثهم عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال : السجل كاتب للنبي ﷺ ، وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لايصح أصلاً ، وكذلك ما تقدّم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لايصح أيضاً ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي فسح الله في عمره ونسأ في أجله ، وختم له بصالح عمله ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدته ولله الحمد . وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للانكار على هذا الحديث ، ورده أتم رد ؛ وقال : لايعرف في الصحابة أحد اسمه السجل ، وكتاب النبي ﷺ ، معروفون وليس فيهم احد اسمه السجل ، وصدق رحمه الله في ذلك ، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكره في أسماء الصحابة ، فإنما اعتمد على هذا الحديث لاعلى غيره ، والله أعلم ؛ والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة ، قال علي بن أبي طلحة ، والعوفي عنه ، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب ، أي على الكتاب بمعنى المكتوب ، كقوله ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي على الجبين ، وله نظائر في اللغة ، والله أعلم . وقوله ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ يعني هذا كائن لامحالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم ، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لايخلف ولايبدل ، وهو القادر على ذلك ، ولهذا قال ﴿إنا كنا فاعلين﴾ . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع أبو جعفر وعبيدة العَمّي ، قالوا حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين» وذكر تمام الحديث ، أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ، ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه ، وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة .

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وقال ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ وأخبر تعالى ان هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لامحالة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ . قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ فقال الزبور : التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وقال مجاهد : الزبور الكتاب ، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود ، والذكر التوراة . وعن ابن عباس : الذكر القرآن ، وقال سعيد بن جبير : الذكر الذي في السماء . وقال مجاهد : الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله ، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله ، وكذا قال زيد بن أسلم : هو الكتاب الأول ، وقال الثوري : هو اللوح المحفوظ . وقال عبد الرحمن بن زيد ، بن أسلم : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء ، والذكر أم الكتاب الذي

يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون . وقال مجاهد عن ابن عباس ﴿إن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال : أرض الجنة ، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري ، وقال أبو الدرداء : نحن الصالحون . وقال السدي : هم المؤمنون ، وقوله ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي أن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً لمنفعة وكفاية لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم

وقوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ يخبر تعالى ان الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ وقال تعالى في صفة القرآن ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ . وقال مسلم في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين . قال «إني لم أبعث لعاناً ، وإنما بعثت رحمة» انفرد بإخراجه مسلم . وفي الحديث الآخر «إنما أنا رحمة مهداة» رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً . قال إبراهيم الحربي . وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر ابا هريرة . وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث ، فقال : كان عند حفص بن غياث مرسلاً .

قال الحافظ بن عساكر : وقد رواه مالك بن سعيد الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً ، ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقري وأبي أحمد الحاكم ، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي ، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري عن أبي أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إنما أنا رحمة مهداة» ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعر عن سعيد بن خالد ، عن رجل عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين» .

قال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان ، حدثنا أحمد بن صالح قال : وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف ، عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب ، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن خمره : يا معشر قريش إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه ، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه ، فإنه كالأسد الضاري ، إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفي القردان عن المناسم ، والله أن له لسحرة مارأيته قط ولا أحداً من أصحابه الا رأيت معهم الشياطين ، وانكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة يعني الأوس والخزرج ، فهو عدو استعان بعدو ، فقال له مطعم بن عدي : يا ابا الحكم والله مارأيت أحداً أصدق لساناً ، ولا اصدق موعداً من أخيكم الذي طردتم ، وإذ فعلتم الذي فعلتم ، فكونوا أكف الناس عنه ، قال أبو سفيان بن الحارث : كونوا أشد ماكنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، وإن اطعتموني الجأتموهم حير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم ، فيكون وحيداً مطروداً ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك في المدلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم ، وقال :

سامنح جانباً مني غليظاً على ما كان من قرب وبعد
رجال الخزرجية أهل ذل إذا ماكان هزل بعد جد

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «والذي نفسي بيده ، لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون ، إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه ، لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب» وقال أحمد بن صالح : أرجو أن يكون الحديث صحيحاً . وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، حدثني عمرو بن قيس عن عمرو بن أبي قرة الكندي قال : كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ ، فجاء حذيفة إلى سلمان ، فقال سلمان : يا حذيفة ان رسول الله ﷺ خطب فقال «ايما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون ، إنما بعثني الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة» .

ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة ، فإن قيل : فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب مارواه ابو جعفر بن جرير : حدثنا إسحاق بن شاهين ، حدثنا إسحاق الأزرق عن المسعودي عن رجل يقال له سعيد عن سعيد بن

جبير عن ابن عباس في قوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما اصاب الأمم من الخسف والقذف ؛ وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن أبي سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه ، والله أعلم ؛ وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي عن أيوب بن سويد عن المسعودي عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلي به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف .

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلواته وسلامه عليه ان يقول للمشركين ﴿إنما يوحي اليّ انما الهكم إله واحد فهل انتم مسلمون﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له ﴿فإن تولوا﴾ أي تركوا مادعوتهم إليه ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم اني حرب لكم كما انكم حرب لي بريء منكم كما أنتم براء مني ، كقوله ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم أعمالكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون﴾ وقال ﴿واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء﴾ اي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء ، وهكذا ههنا ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أي اعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك .

وقوله ﴿وان ادري اقريب أم بعيد ماتوعدون﴾ أي هو واقع لامحالة ، ولكن لاعلم لي بقربه ولا ببعده ﴿انه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون﴾ أي ان الله يعلم الغيب جميعه ويعلم مايظهره العباد ومايسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل . وقوله ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين﴾ أي وما أدري لعل هذه فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع الى أجل مسمى ، وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ وأمر رسول الله ﷺ ان يقول ذلك . وعن مالك عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال ﴿رب احكم بالحق﴾ . وقوله ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي على مايقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

سورة الحج

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ
أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾